الصّباح الأسبوعي: الاثنين 11/ 04/ 1988

قراءة في "امرأة الفسيفساء"

حبيبة المسعودي

تبدو معاناة الشّاعر من خلال مقطوعات وقصائد هذه المجموعة قد تركّزت حول الأغراض التّالية:
هموم الشّاعر الذّاتيّة وأزمته النّفسيّة والمشاغل الإجتماعيّة والسّياسيّة بصفة عامّة. وقد استلهم الشّاعر قصائده بكلّ بساطة من واقع الحياة اليوميّة وتفاصيلها المتنوّعة منتقيا منها بعض المشاهد والأحداث مصوّرا إيّاها في أبعادها الإجتماعيّة والسّياسيّة والإنسانيّة فكيف تبدو ذات الشاعر من خلال المجموعة إذن؟
منذ أوّل قطعة نجد الشّاعر يعيش أزمة نفسيّة ناتجة عن توتّر علاقته بما حوله وبذور هذه الأزمة مبثوثة في كثير من القصائد وهي ذات وجوه متعدّدة فذات الشّاعر تبدو أحيانا محاصرة وكأنّي به يعيش أزمة وجوديّة قد ضغطت على كيانه وجعلته في حالة شعور بالغثيان قد سئم فيها كلّ شيء وأصبح يمقت كلّ ما حوله ويتمنى الغياب عن الوجود ولعلّ ذلك يظهر في قصيده "غياب" إذ يقول:

وأنا وحدي أنزف
أقطر ... أقطر ... لا أصيح
عالم للجراح
عالم للرّياح.

ونجد صدى هذا الشّعور أيضا في مجموعة "نوّارة الملح" وهناك أيضا شعور بالمرارة والإحباط يصل إلى حد الإختناق وقد يكون هذا الإحساس راجعا إلى وعي حادّ لديه بمنزلة الإنسانيّة بصفة عامّة.
في عالم كلّ ما فيه يبعث على الألم والأسى وإلى وضعه كشاعر مرهف الإحساس فنراه في قصيدة بعنوان "البيت" بعد أن صوّر ببشاعة بيته:

بيتي مزابل
وقطط تموء
بيتي جيفة وذئاب تعوي
"يصرخ": فهاجر أيّها الشّاعر
من هذا الجسد
"ويأتي الرّدّ": إلى أين؟
والكوخ جراح ونواح ونباح.

وفي قصيدة بعنوان "أناقة" يقدّم لنا الشّاعر صورة رجل منسحق منسوف من الدّاخل لعلّه يصوّر نفسه إذ يقول بأسلوب حصريّ:

ما أنت إلاّ

هيكل من فحم
وفتيل على صدر يشتعل
وقدم تمشي على الزّجاج.
وهذا الشّعور بالضّياع والإنسحاق والعجز عن الخلاص والإنعتاق يتجسّم في قوله من قصيدة "أحوال يوسف اليقظان"
والسّجن أرحب من المدينة
من الغرق بين الزنزانة والعمارة؟
وكلّ هذه المشاعر يرافقها شعور حادّ بالوحدة والوحشة إذ يقول في قصيدة "غياب"
كلّ الذين احببتهم
أقاموا صدور مطيّهم
وارتحلوا.
ثمّ يقول في نفس القصيدة:
وأنا وحدي أنزف
ويقول في قصيدة "أحوال يوسف اليقظان"
واحد يوسف في الزّحام
ولكن هموم الشّاعر مهما تراكمت وتنوّعت فإنّنا نجدها في نهاية الأمر تعانق هموم القطاع الأوسع من أبناء وطنه والفئات المسحوقة في ظلّ الحيف الاجتماعيّ، وقد أبدع الشّاعر في تصوير أوضاعها معتمدا على المقابلة بين مظاهر النّعومة والتّرف الإستهلاكيّ لأقلّية محظوظة والبؤس والشّقاء اليّوميّين للأغلبيّة السّاحقة دون خطابة سياسيّة ولا قعقعة فيقول في قطعة بعنوان "الشّتاء"
يا دفء صدارات الصّوف
وقفّازات الجلد
ومعاطف الفرو
هو الشّتاء
أقدم يمشي على الزّرابي
... وأقدام
في الطّين والماء.
ونجد نفس هذه المقابلة الطّريفة عند الشّاعر في قصيدة أخرى وإن لم تكن في نفس السّياق إذ يقول:
حذائي الغارق في الوحل
وحليّ على السّرير الوثير ... والأبيض!
ووعي الشّاعر الحادّ لم يقتصر على ذاته وأبناء شعبه بل اتّسع ليشمل الأمّة العربيّة ونجد ذلك في قصيدة "سنة أولى بيروت" وهي تصوّر واقع حضارة عربية مفلسفة خاوية من كلّ قيم الحريّة والعدالة الإجتماعيّة والكرامة وقد استعان الشّاعر في تصوير حالها برموز من التّاريخ العربيّ الإسلامي معبّرا عن الهموم الجالية والآمال المختزنة في الضّمير الجماعي لشعبنا العربي داعيا إلى التّغيير في قصيدة تلت هذه القصيدة مباشرة بعنون "انطلاقة"

جاء فيها قوله مخاطبا الشّمس (الحرّيّة ... الثّورة)
لا خوف من الطّوفان
بعد الغرق
انطلقي نفتح مدنا
نرسم وطنا
انطلقي
فرحا على الحزن
خصبا على القحط.
وقد تغنّى الشّاعر في قصيدة أخرى بعنوان حوريّة متغزّلا بها.
ولم يبق لي في ختام هذه الإنطباعات إلاّ أن أتساءل عن علاقة الشّاعر بالمرأة من خلال المجموعة الخاصّة (وأنا قارئة) فمن خلال تتبّعي للقصائد التّي وضعتها تحت المحور الذّاتي وجدت صورة المرأة عادية وهو تعتبر جزءا من تفاصيلها وحتّى من رتابتها، فهي صورة حواء تعايش آدم وقد جرّدها الشّاعر ممّا وضعها فيه الشّعر العربي التقليديّ بصفتها مصدر الغريزة والجنس وممّا رفعها إليه الشّعر الرّومنسيّ من قدسيّة وإشراق فهي الزوجة تعيش مع الشّاعر وقد لا تستطيع خرق جدار وحدته إذ يقول في "أحوال يوسف اليقظان"
أتجوّل وحدي في خيالاتي السّريّة
وقد تكون الطّرف المقابل في علاقة عابرة قد تثير فيه الحنين إلى رؤيتها والأسف لفراقها كما يظهر ذلك في قصيدتي "انتظار ... وفراق" إذ يقول:
"فهل نلتقي صدفة؟!" (انتظار)
"ناديت ... ناديت" (فراق)
وافترقنا في الزّحام.
فلا غزل ولا عشق ولا لوعة بل إنّ زينتها قد تذكّره ببعض الصّور المؤلمة مثلما نجد ذلك في مقطوعة بعنوان "برتقالة":
تقشّرين برتقالة المساء
لصفرتك شبه السّكين
وللدّنيا مثل الدّم.
أمّا عن الوسائل الفنّيّة المستخدمة فإنّ الشّاعر قد اعتمد الرّمز وهو متنوّع وهذه الرّموز هي الشّمس والبحر والألوان والفصول من ربيع وشتاء ورموز تاريخيّة مثل اخوان الصّفاء وثورة الزّنج.
وكذلك نجد الشّاعر متأثّرا بالأسلوب القرآني في تراكيبه وتعابيره أحيانا.
أمّا فيما يتعلّق باعتماد الحياة اليوميّة كمعين لتجربته الفنيّة فهي محاولة جريئة غير أنّه لا بدّ من الحذر حتّى نتجنّب الوقوع في الرؤية التّسجيليّة المحدودة ونثر الواقع والتّقريريّة فتفقد القصائد التّدفّق الحارّ وجماليّتها الأدبيّة وقد لاحظت بعض هذه الهنات في قصيدة "أحوال يوسف اليقظان".

"امرأة فسيفساء" لسوف عبيد -دار الرياح الأربع- تونس.